لوحة الرّسم

-1-

استطالت أظافري من جديد، فانتبه لها أبي ، ونطق بأمرٍ عسكريّ:
"هات المقصّ وتعال !.."

قصّها لي جميعاً، ومع كلّ ظفر يسقط، اختار أبي جملة، فأنشأ قصيدة من عشر أبيات:
" هذه الأظافر للبنات، يصبغنها بالأحمر، لم لا تصبغها بالأحمر إذاً ؟!، أما تستحي بهذه الأظافر؟!، النظافة من الإيمان!، ثم ألا يراك المعلّم؟! أو لعلّه مثلك، فكيف يراك؟!، أمك التي دلّلتك، أفسدتك!..يا لعين.. يا خبيث!..
وراح يلهث!.. إنه سعير الشعر !. لم أنبس بحرف، إلاّ أني صرخت، عندما قرض المقصّ لحم ظفري، فردّ أبي على الصرخة بالمثل! .

كان فيلم الكرتون قد خلب لبّي!، أرجل الشيطان مثل قوائم البقر.. وعيون الساحرة الحمراء!.. وبطلنا، نحن الأطفال، يتمتّع بأظافر قويّة، حادّة!، خمش وجه الشيطان، وفتك بأعوانه!، مستخدماً الأظافر!، والأظافر فحسب!.

الآن، أعاني الألم!..
أويت للنوم باكراً، ووخز الظفر المقروض يدقّ في قلبي دقّاً يحاكي النبض!. أخوتي ممدّدون أرضاً بالتوازي، يغطّون في نومهم، ويطلقون الشخير!.. باستطاعتي التمييز بينهم، من الصوت!، إنها سيمفونية طويلة، مكرورة مملّة، لكنني اعتدت عليها، وأدمنت، حتى إن الأرق ينتابني، إذا ما توقف العزف صدفةً، فلا أجد النوم، أو أفزّ من نومي، كما أفعل لحظة تنقض الكوابيس!.
تعزف السيمفونية جوقة مترامية الأطراف، بآلتي الأنف والفم، بأعصاب باردة!.. الإيقاع الرّقيق الحادّ، هذا هو أخي الأصغر، كلّما خرج إلى الزقاق نودي عليه، وحطّ أبي على خدّه صفعة!، أخيراً، اشترى له دراجة متهالكة من سوق الخميس، شرط أن يدحرجها داخل الدار. فتغيّر لحن الشخير عنده، فجأة!، وأحدث صدمة، لم أعتد عليها إلاّ مع الوقت، أصبح الصوت

متقطّعاً، وكان مديدا!، قالت أمي، الأمل، ..أن ينقطع شخير الولد مستقبلاً، مع درّاجة ناريّة!.

أنا لا أحبّ الدرّاجات مطلقاً، أرى أخوتي في صراع عليها، فأندهش. أقول في نفسي، علام يتشاجر المجانين؟!. لكني أومن بفائدة الدرّاجة، وأن باستطاعتها قطع مسافة طويلة، دون جهد يذكر، أو زعيق، من بيتنا فوق الهضبة، وحتى قاع المدينة،. أمّا صعوداً، ويا للهول!، فالأمر يختلف!، من أجل ذلك ظللت أسائل نفسي: علام يتشاجر المجانين؟!.

أخي الأكبر مني قليلاً، عامل مناضل، يساهم في بناء الأسرة، مثل أبي تماماً، وعمله يقتصر على بيع الدخان المهرّب، وفي عرض الشارع. لذلك يمتلك ساقين قويّتين وسريعتين، يطلقهما للريح ساعة يرى الشرطي أمامه. نحترمه كلّ احترام!، أخيراً، حصل على الجائزة الأولى، من رئيسه، وجاء يحمل صندوق تبغ مختوم هديّةً لأبي. فسحب أبي سيجارة، وراح يدخّن في متعة عظيمة، يرنو إلى أخي بإعجاب وفخر!. قال له، وهو ينفث دفعة تلو أخرى، أنت رجل البيت، ورمز العائلة، وابن أبيك، أيها الصنديد!. فحفظت له مقطوعة شعرية جديدة!. من الشعر الحرّ طبعاً. منذ ذاك الحدث، تغيّر شخير الأخ الأكبر إلى الأفضل أيضا!. وكان عليّ التأقلم مع معزوفة أخرى!.

أخواي الأكبران، في مستوى من العمر واحد، إنهما توأمان، ومع ذلك لابدّ أن يتقدّم واحد على الآخر في السن، ولو بضع دقائق معدودة، ذاك الذي سقط إلى الدنيا بالصراخ أولا!. هذه المسألة، عذّبت أمي كثيراً!، إذ طالما واجهت ذات السؤال، من الأكبر؟!.. أو من سقط أولاً ؟!، وكم الوقت الفارق؟!.. قرّرت أخيراً، أنه الثرثار الشرس!، هبط بالعويل، ما غطّى صوت الثاني كليّاً، فحمل المهمّة، وكان الثاني هادئاً صموتا!..

مرّةً، كنا في هرج ومرج، حول سنّ أخويّ، أيهما أكبر؟!.. فطلب أخي الرّاكض أن يكشفا عن الأسنان للفحص!، ثمّ نشبت المعركة، فاختار الصّموت الانسحاب خارجاً، حيث أدلى بأذنيه مطرق الرأس وغادر!، لكن أبي، كعادته، كان يبادر إلى التدخّل، وينتصر للدّخان المهرّب، لا سواه!. وما المشكلة، أيها الصفيق؟!.. ألا تفرّق بين المزح والجدّ؟!..

ومرةً، اكتشفت أمي في جعبة أخي الانطوائيّ صورةً لفتاة، أرادت التحقيق معه، فمزّق الصورة نتفاً صغيرة، وألقاها أرضاً، ثمّ خرج مطرقاً، دون أن ينبس بحرف واحد!. رسخ المشهد في ذاكرتي بالألم!، من تكون تلك الفتاة؟!، ولم لم يجب أخي على أيّ سؤال؟!، تساءلت، ما المشكلة ؟!،

ولكن من هي هذه؟!، وأين تسكن، لأحزن عليها؟!، لم أعرف، ولا أعرف حتى الآن!، رجوت أخي، من بعد، وطرحت السؤال، فلم يجب، أدلى أذنيه وخرج!.

أبي من باعة الرصيف، يرجع، كل يوم، منهكاً ملويّ الذراع، فمرةً لا يبيع شيئاً، ومرة يبيع، ومرة تصادر له الشرطة البضاعة، قليلاً ما يتحدّث عن ذلك!، و النتيجة واحدة!. إنه منزعج دائماً، ويصرخ لكلّ هفوة!. لا نستطيع البقاء أمامه، أو مجاراته في شيء، فنتركه للنوم، ونمضي الوقت في الشارع!.

مرةً، انتبهت له يذرف الدمع، وهو يسقي الورود، فيقطر دمعه والماء!. لن تذهب الغصّة من صدري أبداً، كلّما تذكّرت، تهزّني رعشة!. وأشعر أن أبي ما كان دمعه يسقي الزهور وحسب، بل كان يسقينا!.

حين يعضّه الحزن، لا يهدّئ من روعه إلاّ بائع الدخان المهرّب، يقعده في حجره، ويمسح على رأسه بالأنامل. مرةً، كان مثقلاً بالهمّ، فاستثنى أخي هذا، وصبّ علينا الشتائم كلّها، ناعتاً إيّانا بالكلاب المسعورة، والخنازير!.. كلام لا أنساه:

ما الفائدة منكم يا أوغاد؟!.. تتعلّمون اللؤم والخبث في المدارس، لتصبحوا لئاماً، قذرين، تصادرون أشياء الناس، وتقبضون الرّشاوى، وتسرقون، وتظلمون!.. تبّاً لكم!.

مرّةً، قصّ على أمي حادثة ذاك اليوم، لمّا صادروا البضاعة منهم، فصرخ مع زملاءه في وجه الشرطيّ، حطّمتم كلّ شيء، فماذا نعمل؟!. قال لهم الشرطيّ، اعملوا قوّادين!. عندها بصقوا عليه بصقة رجلٍ واحدٍ، فانسحب هذا بسرعة إلى أقرانه!.

ما زال الألم ينخز في قلبي!، شكل النافذتين مستطيل ضيّق، ينتهي، من أعلى، بقوس في شكل ظفر، فهما أصبعان مرفوعتان. الباب كالإبهام، أكثر ثخناً وانخفاضاً، قوسه الأعلى في شكل ظفر أيضا!. الليل يغدق الظلام على ساحة الدار، يرخي على النافذتين ستاراً أسود!.

وشعرت بالنعاس، فغفوت!..

البحر ناصع الزّرقة، وتحطّ نسمات رقيقة جذّابة، فتلوي استواءه من حين لآخر ليّ البساط.، يثقب البساط رأس حوت عات وثباً في الهواء، ثم يغوص تحته!، جعلت أغوص خلفه في العمق، حتى مكثت أمامه!. أعرف، ممّا رأيت في أفلام البحر، أنه من الخبث، حيث يريض كالطّود فاغراً بفكّيه، فلا يأتي بحركة، سوى استقبال أفواج السمك الضّالّ، في جوفه، فلا يخرج

السمك، من بعد، أبدا!.
راقبت المشهد كلّه، دخول، ثم بلع وهضم، وبلع وهضم!.. لا خروج!. فإلى متى؟!.. أطلقت صفرةً طويلةً!.. فانفثأت فقاعات من الهواء، راحت تثب إلى وجه البحر تتابعاً، وتثقب السطح لتفرغ!.. تلمّست الأظافر المقصوصة!.. أريد الانقضاض!. لكني شعرت بالثقل، ولمّا يزل الفكّ المشرّع يستقبل طائفة من السمك بعد أخرى!.. خلجت بيدي، فلم يأبه!.. ثم راح يتقدّم، فانسحبت، حتى اختفيت في شعاب المرجان الممتدّ كعشبٍ أسطوريّ، هناك رأيت الأسماك الجميلة، تسطع بالأحمر، والأزرق، والأخضر!.. الشفّاف منها، والداكن الأسود!، تقابلت اثنتان، فقبّلت إحداهما الأخرى، مع كل واحدة لوحة رسمٍ جميلة!، ثم انسابتا في اتّجاهين متعاكسين.. واقتربت واحدة صوبي، فتشممت أصابعي، ثم وقفت تقبّل ظفري المقروض، عندها شعرت بصاعقة النار !!!..
بسرعة خارقة، شرّعت في الصعود إلى أعلى، وأعلى.. فثقبت وجه البساط الأزرق مندفعاً خارج النوم!.

وجدت أصبعي ينخز بالألم، وعلى النوافذ فتح البدر نفقاً دافعاً لجّة الظلام!. مازالت جوقة العزف تعمل!، وتنقر الساعة في عمق الليل دقائق الوقت الرّتيب، في اتّساق عجيب، مع نبض القلب، والألم!..

وقمت أتمشى..
قعدت عند حوض الزهر على حجر، متملّياً البدر.. يأتي نقيق الضفادع من خارج، وأزيز الجندب القريب مني، الجوّ رطبٌ، والورد يطلق أريجاً عاطرا!..

هذه الدار الجميلة، بحاجة إلى أجر شهريّ!، جميلة!، حتى وإن أحاطت بها أكوام الزبالة، عندنا خط الدفاع، الورد يصدّ الرائحة المنفرة. لكن المشكلة، هي الأجر!، فأين نذهب؟!، كيف نترك الحيّ ونذهب؟!.. الجيران!.. الأصدقاء؟!. لم أستطع هضم الفكرة!.

عندما حملت طبق الطعام إلى جارنا العجوز، شعرت بلحظة من الصدق هناك!، صارت زجاجتا نظّارتيه سميكتين، لكنه لا يكفّ عن القراءة!، أحاطت به رفوف الكتب القديمة، المرصّعة بالعناوين الجذّابة. يخطّ بالريشة خطّاً جميلاً، يرمّم أشياءه بنفسه، من تجليد وترتيب، أمّا الهرّ السعيد، فيأخذ مكانه المفضّل المعتاد، على كرسيّ القشّ الواطئ، يراقب، في فضول، ما يفعل العجوز!.. مرةً، حاولت دفعه عن الكرسيّ لأجلس، لكنه فح مثل ثعبان، ولمّا حاولت ثانيةً، انهال عليّ بالمخلب!. لا يتدخل العجوز في شجارنا. منذ تلك اللحظة، لم أعمد إلى طرده، أمّا إن وجدت الكرسي شاغراً وجلست، فهو يحترم ذلك حتى أغادر.

في دار العجوز باحة سماويّة، وشجرة برتقال، شمخت أغصانها بالظل والرائحة، ما يصدّ بدوره هجوم الزبالة. وتشدو جوقة العصافير باستمرار دون كلل، رغم ما تدفع للهرّ من ضريبةٍ باهظة!.. عندما رأيت عصفوراً في فمه رحت أمقته!، صرّحت بذلك للعجوز!، فقال العجوز، يا بنيّ!.. سأطرح عليّك سؤالاً، لماذا نمقت هرّاً، لأننا رأينا عصفوراً في فمه؟!، ونرى الصيّادين أبطالاً، يحزمون قلائد العصافير على خصورهم؟!.. قلت للعجوز، لا أراهم أبطالاً!. قال، حسناً، أنت لا تراهم أبطالاً، فهل تعرف كيف يراهم الناس؟!. لماذا نريد للقطّ أن يكون حكيماً أكثر من ذوي الحكمة؟!، أو يكون ملكيّاً أكثر من الملك؟!..

رغم أنّي لم أفهم الجملة الأخيرة، وافقت على رأيه، لقد أحدث العجوز انعطافاً في حياتي!، أخذت أحبّ الكتب، وغناءه بالتواشيح والأشعار، والتلاوة، والطاولة الصغيرة، والهرّ، وشجرة البرتقال، والعصافير، حين تغنّي، أو تسقط صرعى في فم القط!..

يوم الجمعة لا نهدي العجوز طعاماً. هذا يوم الجمع، حيث يملأ الدار الأبناء والأحفاد، يملون له الطعام والهدايا، وهو سعيد بهم، لا يهدّد السعادة سوى الشعور بخطر قادمٍ ما، يتوعّد الزهور والزجاج، والكتب، ما يضطرّ العجوز للتوزّع بين حديث الكبار، والانتباه للصغار!..

أحفاد العجوز من أصدقائي، ألهو معهم، وبالتالي هي فرصتي أيضا. ربط لنا العجوز أرجوحة بالشجرة، وحين نلعب، تزقزق فوقنا العصافير، وتصدر الصخب!،

مرّةً، دقّ لنا العجوز ناقوس الخطر دون جدوى!.. أخيراً، خرج بالعكاز وقال، لماذا هذه الضجّة الكبيرة؟!. فرفع العكّاز أقصى ما يستطيع، وانهال به في الخلاء!.. وإذا بنا قد خرسنا جميعاً!. كان هذا كافياً!، وهو يعرف خصمه، سمّاهم بالاسم.. بعد أن عاد أدراجه، ضحكنا، إلاّ خصوم العجوز لم يضحكوا!، فجاءنا الصوت بالتهديد، من جديد: هل أرجع إليكم، هل أرجع؟!.ستهوي العصا على مؤخّرة واحدٍ منكم، إن جئت!. لم ينفّذ تهديده أبداً.

قمت أمشي باتجاه أزيز الجندب، قلّبت الأحجار واحدة بعد أخرى، ولم أعثر عليه!، ما إن تركت المكان، حتى استأنف الغناء!.. اكتشفت الصوت يأتي من مكان آخر، أو من الإثنين، حيث يتبادل الجندبان الصوت للخداع!. رفعت غطاء البئر، وألقيت حجراً على الماء، فجاء الصوت بالصّدى!..

وأخذ الألم يهدأ في ظفري، فقرّرت العودة إلى كنف الجوقة، وارتميت في الفراش!.. لا أعرف ما إذا كنت أصدر الشخير أيضاً!.. مرةً، سألت أمي، وقالت،كلكم تشخرون!..

# # #

ركضت على خطا أبي ماسكاً كفّه ، إلى السوق !.. هذه هي المرّة الألف توصيه أمي بشراء حذاء لي !.. وتمّ تعطيل الوصايا جميعاً ، الأسباب ضاغطة !.. إيفاء الدين ، وسداد الفواتير ، وموسم المؤونة !..

تشقّق جلد الحذاء ، وبلي النعل . فبزغت أصابعي في الهواء الطلق !.. وأبي يهزّ رأسه لأمي ، ويقول ، وهل تحسبينني أعمى ؟!..

حين تعثّرت بأحجار الطريق ، زمّ أبي حاجبيه ليقول ، لا أراك إلاّ مطرق الرأس ، تتعثّر بالأحجار!.
كنت أراقب أصابعي المنبثقة خلال الجلد ، وكلّما قذفت القدم قذفت العين عليها !. برزت إصبعي الصغيرة كليّاً ، تلج وتنبو في احتكاك مستمرّ مع حافّة الجلد ، ما يسبّب الألم ، حتى إنها أصبحت محمرّة ، توشك أن تنكشط !، هذا يعني أني مصاب بإصبعين ، في الرجل واليد !.. ولم أقل لأبي شيئا من ذلك ، لسبب بسيط ، هو أني أجهل ردّ فعله !..

كانت العاصفة !.. التراب يصفع وجهي ، والغبار يلج الحدقة !، فكيف يريد أبي أن أرى موطئ القدم ؟!. قلت له ذلك ، وأكثر ، لماذا لا نركب السيارة إذاً ؟!، فقال ، تريد ركوب السيارة ، أم ركوب حذاء جديد ؟!، فسكت كليّاً !، أيّ مقارنة هذه ، ما بين الحذاء والسيارة ؟!. حين أسمع أبي في هذه المراوغة ، أقول في نفسي ، يا ربّ ، كيف أساعده ؟!، قلت له مرة ، دعني أعمل !، فنظر إليّ ساخراً وقال ، ماذا تعمل ؟!، قلت له ، وماذا يعمل أخي ؟!، أيّ شيء ، ماسحاً للأحذية ، بائعاً للبوظة ، أو للدخان !.. فردّ علي ردّه الصارم ، بل تبقى في المدرسة !، وشعرت بالغضب ، فلم أتمالك نفسي ، قلت له ، أ لأنّي مجتهد في الدرس أصبحت مجرماً ؟!، فقام يبحث عن عصا ، وأطلقت ساقيّ للريح !..

مررنا بعجوز امتطى حماراً هزيلاً !.. وأكثر من هذا ، علّق حبلاً يشدّ به كبشين ضخمين !.. والكبشان ينتعان الحبل إلى الوراء بقوّة ، بحيث أوقفا الحمار الهزيل ومعه العجوز عن التقدّم خطوة واحدة !. ثم راح الحمار يترنّح يمنة ويسرة ، حتى أيقن العجوز بالسّقوط لا محالة ، فاستغاث بنا !..

تراجع أبي رافعاً ذراعيه إلى الجنب ، وراء الكبشين ، وهشّ عليهما بهدوء ، ففعلت مثله . قال أبي ، لو أنّا طاردنا الكبشين في فوضى ، فسوف ينسفان العجوز والحمار معه !. وفعلاً ، جنح الكبشان إلى الطّاعة، وأبعرا على أقدامنا ، شكراً لنا ! .

وانضم إلينا رجل ماش ، على معرفة بأبي ، ناداه باسمه ، وراح يتحدث عن العجوز الهرم ، صاحب الكبشين .
قال الرجل :
إن العجوز وزوجه يهمّان بالسفر إلى الحج ، ولذا فهو يهيّئ الكبشين للأضحية ، ولمّا سألته ، إن الأضاحي تكون هناك ، قال ، عندنا كثير من الجائعين!. واشترى قبرين فارغين ، له ولزوجه ، كتب عليهما الأسماء بلا تاريخ ، استباقاً للموت ، ثم هو ، منذ ذلك الوقت ، يزور القبرين ، ويقرأ عليهما الفاتحة !، هيّأ كلّ شيء !.. الوصايا مودعة في سرّ المختار ، وهو في سباق مع الموت !.

هزّ أبي رأسه معقّباً :
وهل تظن السباق مع الموت شيئاً صغيراً ؟!، أصبح أكثر كلفة منه مع الحياة !.. فهل تعرف ، بكم اشترى العجوز القبرين ؟!، سيقذفوننا خارج المدينة يوماً ما ، فلا نزار !.. ومن لم يغترب في حياته ، يغترب في مماته ، أو فيهما معاً !.. وتكون المقابر القريبة للمقرّبين !..
ضحك الرجل موافقاً لأبي ، وشعرت بالفخر ، بما أن أبي ينطق بالحكمة !.

منذ دخولنا دائرة الكهرباء ، استوقف رجل أبي ، وقال له ، إن احتجت لشيء فأخبرني !. وفي مكتب الموظّف ، رفض أبي أننا استهلكنا بهذا القدر الكبير !. فهزّ الموظف رأسه وقال ، اعترض !. ولكن قبل كل شيء ، عليك الدفع !. عاد أبي وأقسم للموظف أغلظ الأيمان !، فاستوقفه الموظّف بابتسامة خبيثة ، وكانت الصورة الضخمة المعلقة على الحائط تنظر بازورار . قال الموظّف أخيراً ، يا سيدي ! لا تضع وقتي ، هذا هو القانون !.
في الخارج ، استوقفنا الرجل ثانية ، وكانت عينا أبي تقدحان بالشّرر ، قال الرجل ، لنعطه شيئاً يسدّ شدقيه !. وقال أبي ، لن أدفع .

واتجهنا إلى سوق الخميس !.. كان أبي يعمل فيه ، ظلّ ردحاً من الزمن !، وكان يقول ، حين السوق يزدهر ، يستحيل إلى متحف ، يضم أصناف الفنون ، والأثريّات ، والكتب القديمة ، وكل شيء !. وينحطّ مع ظرف

الناس ، حتى يكون شبه كومة من الزبالة ، من حطام الأشياء ، والألبسة العتيقة البالية .
اليوم ، يطفح السوق بالزبالة !، لكنا عثرنا على أشياء ، وقال أبي ، هذه هي العادة !. حين يكون السوق في أسوأ حال ، نجد اللآلئ مطمورة في القمامة ، و حين يكون جيّداً ، نجدها مرصّعة في الأقفاص !.
وأنا فخور بأبي ، بما أنه ينطق بالحكمة !.

اشترى أبي ، من هنا، أشياء كثيرة ، زهيدة السعر ، وجميلة !. أخيراً ، هدّد أمي ببيع ثريّا النحاس ، لسداد فاتورة الكهرباء . فكادت أمي أن تجهش بالبكاء !، قال لها ، إذاً عليك أن تقرّري إمّا ، بيع المروحة ، أو الثريّا ، أو الخزانة . فلم تجبه . هجرته ، وأصبحت تنام معنا ، في غرفة الأطفال !.
ومضت الأيّام إلى أن كسب بعض المال ، فقال لها ، لن نبيع شيئاً !.

شاهدت لوحة من الرسم ، عند أحد الباعة ، عبارة عن فتاة جميلة بثوب مزركش، شالها الأزرق على الصدر ، وأرخت كفّها بالأنامل الطويلة !، فأعجبتني !. ظللت ، خلال مرورنا ، أرى إليها ، فلمّا جزنا الواجهة ، وارتطمت بماش أمامي ، انتهرني أبي ، فلويت برأسي ، ثم انعطفنا ، في آخر السوق ، إلى الجهة اليمنى . وتوقّفنا لدى بائع الأحذية المستعملة .

بعثر أبي كومة الأحذية كلّها ، ثم التقط حذاءً وجدته مريحاً رائعاً .
فانخرط أبي في صراع مع البائع حول السعر !. لكن البائع قلب الحذاء رأسا على عقب ، وأراه العلامة ، قائلاً ، هذا حذاء إيطاليّ ، ويا ليتك تعرف ما هو الحذاء الإيطاليّ !، أحسن من حذاء جديد ألف مرّة !.
لكن أبي وجد الحذاء غالياً، وشدّ يدي مواصلاً السير . فرحت أنتع يده بكلّ قوة !، وكما فعل الكبشان بالعجوز وحماره فعلت به ، حتى ترنّح الرجل يمنة ويسرة ، ثم استدار إليّ :" وبعد !.. ماذا تريد ؟!. " أريد الحذاء "

أقسم البائع لأبي ، من جديد ، أنه لو لم يكن مضطرّاً لبيع البضاعة ، لباع الحذاء بضعف السعر !، "يريدون إخلاء السوق ، وهذا هو السبب !.."
سمع أبي السبب فوافق على الفور ، ثم انهمك في حديث هامس مع البائع . أمّا أنا فامتطيت الحذاء ، ورحت أذرع السوق ذهاباً وإياباً !..

ما عدت أستشعر نتوء الحصى !.. كأني أمشي على وجه الماء !، ضغطت على الحذاء ثقلي كلّه متبختراً ، مصعّراً خدّي خلال السوق ، ولم ينته أبي من الحديث بعد !. فانعطفت ، وتوقّفت أمام لوحة الرسم !.

ربّما أن وقفتي طالت !.. أخيراً ، قال البائع العجوز :

اشترها ، أخفّض لك السعر !..
بكم ؟.
بمائتي ليرة !.
سأسأل أبي .
قل له ، لو لم نكن مضطرين لإخلاء السوق ، لكان السعر ضعفين !.. مفهوم ؟!..قل له هذا !.
سأقول .

افترّت الفتاة بابتسامة أكبر !.. حرّكت الأنامل لتضع السبّابة على أخواتها !.. وعيناها الخصيبتان !.. لكني انتبهت للبائع ينظر إليّ متضامناً ، فأحسست بالخجل!.

وأين أبوك ؟!، هل تكذب عليّ ؟!.
يحادث بائع الأحذية .
اذهب وات به إذاً .

عندما عدت ، لاحظت الباعة في حلقات ، يتحدّثون بعصبيّة !.. عجوز يلفّ سيجارة التبغ برماً بالأصابع ، وآخر ، يرفع كأس الشاي الثقيل إلى شفتيه، وآخر يتحدّث برفع الصوت من حين لآخر !. في الدكان الثانية ، عجوز لوحده !، يستمع لعبد الوهاب وهو يغنيّ " يا ظالم لك يوم " .

انعطفت إلى الصفّ الموازي ، فرأيت أبي ما زال والبائع منهمكين في الحديث ، فاقتربت منهما ، وأخذت أدقّ الأرض بقدمي !، فلمّا لم يأبه أبي ، عدت أدراجي ومكثت أمام اللوحة . لا أعرف كم من وقت مضى ، فلم أشعر إلاّ وكفّه تربّت على رأسي . وصدق ظنّي ، فلم يقبل أبي بشراء اللوحة !.. ترست قدميّ بالأرض ، كما فعل الكبشان ، وأخذ يشدّني عنوة !.. قال له البائع ، اشتر اللوحة للصبيّ بسعر رخيص !.. لولا أني سأخلي المحل ، لطلبت ضعفين !.. فلم يكترث !.

قال لي ، تعال وأنا أشرح لك :
لو اشتريت لك اللوحة ، لصرخت بي أمك وقالت ، بسببها ، لن تدخل الملائكة بيتنا بعد اليوم !.
قل لها ، ابنك هو الذي اشتراها !.
لن تعرف غيري مسؤولاً عن ذلك !.
وماذا عساها تفعل ؟!.
تهجرني شهرين ، وتنام في غرفتكم !..
أعلّق اللوحة في غرفتنا ، فتهرب إليك !.

آه.. بهذه السهولة ؟! ستخلع أمك اللوحة ، وتقذف بها في وجهي !. ثم ترجع لتنام قريرة العين !.

ما استطعت إقناع أبي ، فظللت ، طول الطريق ، صامتاً ، مطرق الرأس في الحذاء الإيطاليّ !، هو ذاك ما بثّني السلوى !.. أصبحت مشيتي خفيفة مريحة ، وسكن الألم في إصبعيّ . ثم الحل هناك عند أمي ، إذا قلت لها ، سأصبح رسّاماً ، سأرى .. إن وافقت ، سأطرح عليها موضوع اللوحة فوراً !. فهل يمكن ، إذا ما وافقت ، أن ترفض شراء اللوحة ؟!.. وإذا احتجّت بموضوع الملائكة ، سأقول لها ، ما رأيت ملاكاً يدخل بيتنا قطّ !.، فلماذا نلقي اللّوم على لوحة ؟!.. أسمعت أبي تلك الخواطر ، فما كان منه إلاّ أن تضاحك ، وقال ، طيّب ، أنا لا علاقة لي في الأمر ، أقنعها وأنا معك !.

وما إن دخلنا البيت ، حتى صرخ أبي :
ابنك يريد أن يشتري لوحة الرسم ليصبح رسّاماً !..

قالت له أمي ، حسناً فعلت بشرائك الحذاء المستعمل، وفّرت لنا بعض المال لفاتورة الكهرباء !. ثم لمّا طرحت موضوع اللّوحة ، قام أبي وغادر الغرفة !. وراحت أمي تصرخ :
يا ولد !.. يا ولد !.. أما ترى أننا لا نقدر على دفع فاتورة الكهرباء ؟!..
وفّرت ثمن حذاء جديد !..
وماذا يعني ؟!.. تريد أخذ ما وفّرت ؟!..
أريد شراء اللوحة !.
يا ولد !.. هذا يكفي !.
وما رأيك أني أصبح رسّاماً ؟!.
رسّاماً ؟!.. لو أصبحت طبّالاً لأثلجت صدري !.
طبّالاً يثلج صدرك ؟!.
طبعاً ، لنرقص على الطبل من الجوع !.. هيّا احمل ذيلك ، وافتح كتاب المدرسة !.

نظر أخي الصّامت إلى الحذاء ، فهزّ رأسه شمالاً ويميناً ، ثم أدلى أذنيه وخرج ، دون إعطاء كلمة واحدة !. بعدها سرّب لي رأيه أخي ، شقيقه التوأم ، أنه لو ظلّ ، الدهر كلّه ، حافياً لن يقبل بشراء حذاء قديم ، وعقّب على رأيه ، "طبعاً واحد مثله ، يخوض امتحانات الكفاءة ، لا يليق به حذاء مستعمل ؟!. ثم لا نعرف ، هل ينجح أم يسقط !.. إن نجح ، كان بها ، وإن لم ينجح ، فيا للهول !.." .
قلت لأخي هذا ، لو أني أعرف الفتاة ، صاحبة الصورة الممزّقة لأريته

ماذا أفعل !. وقال أخي بائع الدخان ، هذا حذاء جيّد للركض ، ولإطفاء السجاير في الأرض !، لو أنك لا تحبه ، لأخذته منك !..

لا يثلج صدري إلاّ العجوز !..

ذهبت إليه بطبق الحساء ، بعد أن ارتشف جرعة ، واستمع إليّ ، قال لي ، اسمع يا بنيّ !.. ألا تريد أن تصبح رسّاماً ؟!. قلت له ، بلى . قال ، إذا هذا يكفي !، أن ترى لوحة في سوق الخميس ، وتحتفظ بها في قلبك !. ألا ترى؟!.. الله لا يعطينا كلّ شيء !. يمنحنا رأس الخيط ، وما علينا إلاّ شدّه ، وشدّه ، حتى يأتي العصفور !. يجب أن نفعل شيئاً نحن أيضاً ، أليس كذلك ؟!. الآن ، أعطاك الله أن تحبّ الرسم !، فهيّا أكمل هذا الحب !. رأيت اللوحة في سوق الخميس ، واستمتعت بها ، ثم أردت شراءها ، لكن أباك أبى ، ثم طرح المسؤوليّة على أمك ، وأمك استبدلت المعنى بآخر !. وأنت ، مالك ولهذه الضجّة ؟!. اطرح كل شيء جانباً ، وضع اللّوحة في عينيك ، ثم ابدأ !. أما سمعت بقصة طفل جاءه كتاب كهديّة ، فعلّقه بحبل في السماء ، ثم راح يرتجح به !. يا لسعادة الطفل هذا !، كن مثله !، ألا تحبّ الارتجاح ؟!..

في اليوم الثاني ، رسمت طفلاً يمتطي كتاباً ، ويرتجح في السماء !.. ولكن الأرجوحة عند العجوز !.. إنها معلّقة بشجرة البرتقال !، وهي للأطفال أيضاً !. في موسم الصيف حين تثمر الشجرة ، ويزداد صخب العصافير ، نرتجح بها في قوّة ، فقانون العجوز ، إن سقط شيء بالارتجاح فهو جائزة الرّاكب !. ولكن بدون غشّ !. لمّا نضج البرتقال ، قرّر العجوز قطفه ، قبل أن يذهب للجوائز !. وطلب مساعدتي !.

نصف ساحة الدار مرصوف بالإسمنت ، ونصفه الآخر بقي تراباً على الطبيعة . فإذا سقط البرتقال على التراب لبث دون حراك ، وإذا سقط على الإسمنت تدحرج ، فلاحقه الهرّ بالوثب !..

لمّا تهاونت في الإمساك بالبرتقال ، من شغفي ، أراقب الهرّ اللّعوب ، صرخ العجوز !. من ثم جمعنا الغلال ، وارتججت بالشجرة !.. بعدئذ رسمت ذاك المشهد !. فلمّا رأى العجوز اللوحة قال ، يالك من رسّام !، أعطني إياها !. فأعطيتها له . لقاء ذلك ، حملت لأمي كيساً من البرتقال ، كهدية !. فصنعت الشراب ، وأهدينا العجوز زجاجتين منه !.

العجوز يحبّ الكتب ، لكني أحبّ الرسم ، والرسم لا سواه !.. أخي الصّموت ، طالب الكفاءة ، جرع كأس الشراب حتى أبقى ربعه ، ثم أدلى

أذنيه وخرج !. قال أخي ، شقيقه التوأم ، هكذا طلاّب الكفاءة !.. لا يليق بهم أن يجرعوا الكأس إلى آخره !.. قلت له ، آه لو كنت أعرف صاحبة الصورة الممزّقة !..

في ساحة الدار ، عند بقعة الظل ، تجالس أمي جارة تماثلها في السن . وتتحدّثان بهمس ، كأن في الأمر خطراً !. فلمّا اقتربت ، أشارت إليّ ، أن لا أقترب !. فأين أذهب ؟!..
إلى الشارع !.

رأيت ابن الجيران ، اسمه سعد ، وهو في سنّي تقريباً ، قال إنّه ذاهب إلى المسبح ، ولماذا لا أذهب معه ؟!. كنت قد قلت له مراراً ، إن أبي يرفض لي أن أذهب !. فهزّ رأسه ساخراً يقول ، دعه يسقيك الحليب إذا !، أصبحت شاباً !..

في السنة الماضية انتشلوا غريقاً !.. ولكن ليس هذا ما يقلق أبي ، لقد تبادر إلى ذهنه ، أن بعض الأطفال قد تمّ استغلالهم جنسيّاً ، ومن ثم طوي الملفّ للأبد !، لا نعرف من الذي طواه !. واستأنف الأولاد في السباحة . من بين الأسباب أيضاً ، ثمن التذكرة !، ما يكفي العائلة خبزاً ليومين ، أو يكفي لأبي علبة السجاير !. قال أبي ، وإن لم نجد ثمن التذكرة ؟!، فماذا تفعل ؟!. طبعاً ستجد المتبرّعين !.. لقاء ماذا ؟!.
قلت له مرة ، تعال معي ، إذاً !. فقال ، بل نذهب إلى البحر ، وفتح ذراعيه أقصاهما ، هكذا البحر !.. فانتظر حتى يجتمع لنا بعض المال !..
إلام أنتظر ؟!. ما رأيته يوماً إلاّ وهو مطمورٍ بالهمّ !.. فإلى متى انتظر ؟!، وما إن يجد حلاً لمشكلة إلاّ وتنزل به أخرى !. فمتى نذهب إلى البحر ؟!، أمل إبليس في الجنّة ، كما تقول أمي . زد على ذلك ، فهو موهوب بوصف الصوّر ، و يلهب خيالنا بالأماني ، كم مرة سمعناه يقول ، يحمل الماء الأجسام بخفّة ، وتمخر القوارب عباب البحر ، والفتيات العاريات !، يمدّ لسانه بالهمس ، من خشية أمي ، مثل عرائس البحر ، مبلّلات الشعر بالماء ، وتفوح منهن رائحة العطر !.. يخطرن جماعات ، جماعات !.. ثم يغطسن ، ويخرجن كالعرائس من جديد !.. كلّ هذا الوصف لكي ننتظر ، ونطرح موضوع المسبح جانباً !. وما رأينا شيئاً من ذلك ، بل سمعنا ، وسمعنا !.. وحتى لا أكذب ، رأيت هذا في الأفلام والمسلسلات !.. أمّا متى نذهب إلى البحر ، أو متى يأتي البحر إلينا ؟!! ، فلا فرق بين الجملتين !.

الأفلام والمسلسلات التي نراها في التلفزيون ، لا تنال إعجاب أبي

مطلقاً !.. ولا تمثيليّات الراديو ، ولا الأغاني !.. مرة ، قالت له أمي ، بربّك قل لي ، ماذا يعجبك ؟!.. فقال لها ، يا امرأة ، يا امرأة ، افهميني !. يدسّون لنا السمّ في العسل !. ثم لمّا بدأ يشدو عبد الوهاب ، قالت له ، تفضّل ، ألست تحبّ عبد الوهاب ؟! .. ثم فجأة ، وقبل نهاية الأغنية انقطعت ، وبدأ المذيع في الشعارات الملتهبة . قال لها أبي ، تفضّلي ، اسمعي أنت !.. ماذا يريد أبي أن يقول ؟!، وماذا تريد الحكومة ؟!، وكيف أفهم المسلسلات والأغاني والأفلام ؟!.. لا أعرف !. ما أعرفه هو أني أكاد أجنّ !. وما عرفت أبي إلاّ بيّاعاً للكلام ، تماماً كما يبيع البضاعة على الرّصيف ، هذا ممنوع ، وهذا ممنوع !.. فكيف لي أن أفهم الفضاء الملبّد ؟!. لا أعرف ، ولا أريد أن أعرف ، كلّ ما أعرفه هو أنّي أعيش حياة القرف والقيء !.

أخي الصّموت يسمع كلام البحر ، وعيناه جاحظتان ، سألناه رأيه فيما يقال ، فأدلى أذنيه وخرج مطرقاً !. ولمّا وضعنا المائدة ، نادينا عليه ، فلم يأت !.. مفهوم ، فهو لا يحبّ طبق اليوم !.

أمي هي التي قصمت فينا عادة الدّلال ، ما لم تستطعه مع أخي الصموت !. أفهمتنا ، أنّه لا يليق بنا ، نحن الفقراء ، التشبّث بتلك العادة ، زد على ذلك ، أنها من الصفات الكريهة !. ، فإذا لم نجد المال ، ماذا نفعل ؟!.. أمّا أخي الصّموت ، فعاملته أمي كما يجب ، منذ ذلك الوقت ، لا يجهر بما يشتهي !. ما يستطيعه وحسب ، هو أن يلوذ بالفرار !.

عائلتنا المكتظّة لا تحتوي على بنت ، ما ألحق بنا الطباع الخشنة !. لا نعرف الأنثى ، ولولا وجود أمّي لكنّا في أسوأ حال ، حتى أمي ، وهي في دور المعلّم ، لا نرى فيها الأنثى !.. الصراخ المستمرّ !.. دع هذا وافعل ذاك !. ونادراً ما تضحك ، كيف تضحك بين غلمان غلاظ ؟!. حتى إذا اضطرت ، ابتلعت الضحكة فأخفتها !، اعتادت أمي الابتسام وحسب !. مثلها الخالد ، أر الطفل عورتك ولا تره أسنانك !. أضف إلى ذلك ، فالصبيان لا يساعدونها في أعمال البيت ، إنهم عبارة عن جملة من المطالب لا تنتهي ، ويعشقون الشارع ، حتى إنّهم يتمنّونه بيتاً لهم !. ومنه يأخذون الألفاظ البذيئة . لكن أبي يعترض ويقول ، المدرسة ليست أحسن حالاً ، ما تسمعين في الشارع ، تسمعينه في المدرسة وزيادة !. لدى أمي أمثلة حيّة ، فيقول أبي مجاريا إيّاها ، إذاً لماذا نتركهم في المدرسة ؟!. إذا كان طالب الكفاءة لا يستطيع كتابة سطر بلا أخطاء ؟!. ويقول لها أيضاً ، اسمعيهم يتحدّثون ويتعاملون ، من أين تعلّموا الخبث والكيد والنميمة ؟!. في مرة ، كانت أمي غاضبة ، وصرخت فينا أمام أبي ، واصفة إيّانا بالصحراء القاحلة !. ثم قالت ، كله منكم ، حبس الله عنا المطر ، والأسعار نار ، واللقمة التي نأكلها مغمّسة بالدماء !، رفعت يديها تجأر ، وكان كلامها المتقطّع يختلط بالبكاء . حين رأى

أخي الصّموت هذا المشهد ، هزّ رأسه مراراً ، وخرج مطرقاً !. أما أخي ، شقيقه التوأم ، فهو معه على طرفي نقيض ، لا شأن له في هذه الدنيا سوى أن يرصد فيه كلّ شاردة وواردة ، لتحليل المعاني بدقّة ، فإذا لم يجد كلاماً ، أخذ حركة البؤبؤين والرموش ، مقارناً إيّاها مع اهتزاز الأصابع ، ونبض القلب !. فإذا لم يصدر شيء ، تلقّف حال رجليه ، وشكل الملابس ، كلّ هذا يعني له شيئاً ما !. إنه باختصار " فرويد الجديد " ، ليس كلّه ، بل أظافر أصابع قدميه ! .

وأنا مستغرق في التفكير ، أمرّر ، قلم الرصاص ، بين أصابعي ، فجأة ، انضغط القلم ، ونظرت ، فإذا هو مكسور إلى قطعتين ، كل واحدة في يد !. لا بأس ، أصبح القلم قلمين !. لم لا ؟!.. إذا ما أضعت واحداً ، وجدت آخر . قالت أمي ، إنها لا تفهم هذا الهراء !.. لا تفهم إلاّ الصّراخ ، واضطررت للخروج إلى الشارع من جديد !.

# # #

وجدت أظافري قد استطالت من جديد ، فاتخذت عادة جديدة ، كلما جلست وأبي كبّلت يديّ ، أو قلبت كفيّ بحيث تظهر الراحتان !. لكن أبي انتبه للأمر، فأخذ يتابع حركتي بإمعان، ولمّا لم يظفر بشيء قال لي ، أراك في عادة جديدة ، كمن يدعو الله ليلاً ونهاراً ، هل غزاك التصوّف على حين غرّة ؟!. أرني ظهر كفّيك !..

هذا أمر عسكريّ لا فكاك منه ! ، قمت بنفسي و أحضرت مقصّ الأظافر ، ثم أخذت أقلّم كلّ ظفر وأنظر إليه فأراه ممتعضاً زامّاً شفتيه ، وأمي تضحك خفية ، وأخي الثرثار يفتح شدقيه من العجب، وأخي الصّموت لم يعجبه المشهد ، فأدلى أذنيه وخرج !.

حمل أبي حقداً على أظافري ، منذ أن تشاجرت وابن الجيران ، سعد ، فنشبت أظافري في وجهه ، وسال الدم ، ثم جاؤوا بالشرطة لأبي ! ، وهؤلاء الأبطال ، بدل أن يبحثوا في الأسباب التي قادت إلى المشكلة ، راحوا يبحثون في شيء آخر !. على كلّ حال ، هم يتدخّلون فقط إذا تضارب الناس ، وسال بينهم الدم ، ورأوا ، بأمّ أعينهم ، اللون الأحمر القاني ،

وفحصوه بالشمّ واللّحس .عندئذ ، يقرّرون القبض على الجاني . من الجاني هنا ؟!. أنا أم أبي ؟!. طردوني خارج الغرفة ، وانفردوا بأبي المسكين !. لكني قبعت خلف الباب لأرى ما عسى يلفّقون عليّ من قول !.. كان معهم أبو سعد ، ويبدو أنّه أفرغ جعبته ، وأتمّ الصفقة في المخفر، فأداروا معه للتو مشهداً مسرحياً بقولهم ، اسكت أنت !. من دون أن ينبس أبو سعد بحرف ! . ثم سردوا لأبي قائمة الاتهام ، اعتداء وحشيّ ، وسباب !.. وساقوا النتائج الوخيمة المتوقّعة ، التوقيف ، والمحاكم ، ثمّ الحكم !. هل تريد كل هذا ؟! فارتعد أبي وقال لهم ، ماذا تريدون ، أنا مستعد !. طبعاً ، إمّا الصلح ، وإمّا التّوقيف !. وطبعاً ، أيضاً ، لا صلح بدون مدفوعات !. وضع على الطاولة كلّ ما ادّخره لبضاعة الرّصيف . و كتبوا تعهّداً ، بصم عليه بالإبهام ، ثم انصرفوا ! .

بعد ذلك أقسم أبي يميناً ، طبعاً ، بعد أن وجّه لي لكمات قاضية ، وسالت الدماء ، دون مقابل ، أقسم على أنه سيكرّر لي هذا الاحتفال كلّما بزغت أظافري في الهواء الطلق ! .

# # #

أخيراً ، قطعوا عنّا الكهرباء !.

عند المساء ، خيّم على بيتنا الظلام ، ومصابيح الشارع تقذف النور ، قال أبي ، ليفعلوا ما شاء لهم الفعل ، فنحن لم نخلق وفي فمنا ضوء الكهرباء !.. ولم نفطم عليها ، وحين جاءتنا لم نعتد عليها بعد !.

صحيح ما قاله أبي ، لم نعتد عليها ، ومازلنا نرى فيها عدوّاً خفيّاً ، كالثعبان ، يلدغ من تحت التبن !. في مرة ، سمعت صراخ أمي في المطبخ ، فهرعت ، قالت ، إن تيّار الكهرباء قد صعقها !. ومرة ، وضعت يدي ، على غفلة ، فوق مأخذ الكهرباء ، فانقذفت مترين إلى الوراء !. مرّة كان حبل الغسيل مكهرباً ، فلسع أمي !.. حرق لأبي جهاز الراديو .. ومحرّك الثلاّجة .. فجّر المصابيح !..

في حارتنا امرأة ماتت كليّاً ، وهي تعمل على الغسّالة !.. وفي الشارع التالي ، ركضت مع الناس لأرى ماذا حدث ؟!.. ويا لهول ما رأيت !..

أحد عمّال الكهرباء معلّقاً بتيّار التوتّر العالي ، من الكتف ، ومدلّى الرأس ، والناس تحته ، من الخوف ، لا يأتون بحركة !.. معلّمات المدرسة ، نصبن مناحة !.. يجهشن بالبكاء ، وينظرن جهة الأخرى !.. والجثّة بلا حراك ، يصدر عنها دخان الاحتراق ! .

فماذا تركت الكهرباء لنا من فرق ، بين رجل معلّق من الرأس ، وبين آخر ، معلّق من الكتف ؟!.. ماذا ننتظر بعد ؟!. ثم ونحن ندفع الثمن ، كم انقطع التيّار ، على حين غرة ، فأهال علينا الظلام ، ساعات ، وساعات !.

كنت أرى الشمع وفيّاً أكثر ، يضيء إذا ما أردنا ، و ينطفئ إذا أردنا . أمّا أن يشعّ النور الباهر ، ونقول ، ما هذا الضياء !!. ثم فجأة يتلاشى ، أو يعمل فينا لسعاً و تخريباً وموتاً !.. أليس هذا طعناً في الظهر ، لا نملك حتى الرد عليه ؟!.

ثم ، وللطوارئ ، جاءنا أبي بفانوس نحاسيّ ، من سوق الخميس ، وياله من فانوس سحريّ !. كم مرة أضاء ، واخترق الظلام !. صحيح ، أنّ نوره خافت ، ولكن أيّ جمال وراء هذا النور ؟!.. اليوم لا أستطيع إقناع أخوتي بسحر الجمال ، فقد حشد الثرثار أكواماً من الحجج ، حتى يسفّه قولي !. أمّا الصموت فقد سخر منا جميعاً ، وأدلى أذنيه ، ثم خرج !. وبائع الدخان قال ، أن تشعل سيجارة ، تضيء لك أكثر !. فماذا أقول له ؟!. حتى أخي الصغير، قال يسخر ، أضيء مصباح الدراجة بالدحرجة في باحة الدار ، أليس أفضل ؟!. ماذا أقول له ؟!. كان أبي الغاضب خارج الغرفة ، وإلاّ كان انفجر !.. لكني أحبّ أخي المناضل ، بائع الدخان !. وددت لو أعمل ، وأساعد أبي في شيء ما !. جعلوا مني مجرماً ، ومن المدرسة سجناً !. صرخت في أمي ، مراراً ، ما عساي أكون ؟!.. صبيّ يبيع الدخان ، يكسب أكثر من معلّم ، و ماسح الأحذية يكسب أكثر ، والشحّاذ !. وسأصرخ في كل مرة ، وأعرف العاقبة !.. ستحمل أمي العصا ، وأستعدّ للفرار ، مرة للضرب ، ومرة للتهديد !. هل هناك شيء آخر؟!.. أعرف أنّ الراحة للأغبياء !. وآه لو كنت غبياً !، لماذا السّخط إذاً ؟!.. لأني مجتهد ؟!.

جاء صراخ أمي من المطبخ ، فهرعت ، إنها فوق السقيفة ، وتبحث عن الفانوس ، قالت ، إنها سمعت حركة بين الرّكام ، لعلّه الفأر ! . فعرضت أن آتي بقطّ العجوز ، علّه يتحرّى الأمر !. فراحت تسخر مني بمرارة . وقالت ، أنا الذي أسخر منها ، ثم صاحت ، اغرب عن وجهي ، وإلاّ أسقطت على رأسك المدفأة !. قلت لها ، ذاهب ، فلا تخافي إن كان فأراً صغيراً ، أما إذا كان جرذاً ، فيا للهول !. وإذا هي قذفت نفسها من على السقيفة ،

فخرجت إلى الشارع ركضاً !.

مصباح الشارع يضيء حائط البيت !. أردت قذفه بالحجر !. وولجت البيت أصرخ ، المصباح يسخر منا ، نحن لا نريد لمصباح يسخرمنّا !.. يضيء الشارع ، والعتمة في البيت ؟! ، سأكسره ! . صرخت أمام أمي ، كان أبي يرمّم مصباح النفط ، وصامتاً كليّاً ! ، فرفع رأسه وألقى عليّ نظرة ساخرة ! . أمي التي لم تفتح فاها بحرف ، راحت تبحث عن شيء ما !. فذهبت إلى الغرفة الثانية . هناك أخوتي ، هم صامتون !. وأخي الصّموت ، كدّس عليه الظلام صمتاً على صمت ، فأوقع برأسه جامداً لا يتحرك !. ثم فجأة ، نطق الثرثار :

الحمد لله ، انتهت امتحانات الكفاءة ، وإلاّ كنا انفجرنا !.

أبي يرمّم المصباح ، تساعده الشمعة !. واكتشف أخيراً أن الفتيل قد وصل النهاية !. فراح ينفث الغضب !. وقذف الشمعة إلى بعيد !. ركضت فحملتها ، ولم تنطفئ بعد . نفخت برفق ، أن انطفئي ، فخبت . ولكن ، لماذا؟!.. نحن بحاجة إليها !. فأشعلتها من جديد !.

ثم فجأة ، أخذ أبي يلغط في الكلام :" هاتوا !.. اذهب أنت .. أحضر الكمّاشة !. أنت ، أحضر السلّم !. هاتوا .. الشريط .. اللاصق، أين وضعتموه؟!.. عليكم اللعنة !. "

أحضرنا له ما أراد ، لنرى ماذا يفعل الرجل !.. صرخ فينا جميعاً " اخرسوا " . ثم وجّه الكلام إليّ خاصّة ، هل رأيت سلوك الموظّف ؟!، هكذا يعدّونكم للمستقبل !.

وشعرت بانزعاج ، من نوع التوبيخ هذا . فوثبت وثباً ، وأسندت له السلّم على الحائط ، قلت في نفسي ، ماذا أصاب الرجل ؟!. صعد إلى كهرباء الشارع، فعلّق الشريط ، وأعاد وصل التيّار، رغم قرار الحكومة !.

في الصباح ، حطّ علينا التفتيش !..

فتح أبي الباب لهم ، ونطق رئيس الدورية عبارته الشهيرة " أيّها المواطن ، أنت تسرق الدولة ، أقبض عليك باسم القانون !. "

قال أبي ، نحن لا نستهلك بخمسة آلاف ، ولا بخمس مائة !.. أنتم السارقون !.

فأغلقوا فمه ، وجرّوه إلى السيّارة ، كان العجوز قد خرج على الضوضاء ، ورآنا في الصراخ جميعاً ، انهلت بقبضتيّ على مؤخرة الشرطيّ

الماسك رأس أبي ، لكنّه وجّه لي رفسة أبعدتني مترين ، فارتميت أرضاً !. ولم أجد القدرة على النهوض ، لكنني رأيت ما حدث !

اعترض العجوز السيّارة ، ونقر العجلة بالعصا ، قال لهم :
اتركوا هذا الرجل !.. اتركوه .. لم نعهد به إلاّ الاستقامة !.. اتركوه .
لكن العجلة دارت بطيئاً .. بطيئاً .. إلى أن أخلى العجوز الدرب فانطلقت !.. و جاء آخذاً بيديّ للنّهوض !.

# # #

منذ أسبوعين ، يقبع أبي في سراديب السجن ، طالت أظافري في غيبته !. عندما انتبهت لها أمي قالت ، ربّما أصبت السعادة في هذه المناسبة ، والدليل على ذلك أظافري الطويلة !. وأننا سنذهب إلى زيارته ، ولسوف ترى ، هل أذهب على تلك الحال ؟!.

مضيت معها إلى العجوز ، هناك بكت أمي ، وسألته ، " هل يعذّبونه ؟!. " فخفّف العجوز عنها بقوله ، وماذا فعل ليعذبوه ؟!. هناك آلاف الناس يقبعون في السجن لمخالفات الماء والكهرباء !. فقالت أمي ، قال لهم ، أنتم السارقون !. وربّما يعملونها له سياسيّة ؟!. قال العجوز ، لا تخافي يا ابنتي .. لا تخافي !.. سيرجع إليكم ، إنشاء الله .
وطلبت أمي مساعدة العجوز في بيع الخزانة . فقال العجوز ، أقرضك بعض المال، ودعي الخزانة في البيت !.

في اليوم التالي ، رأيت العجوز هادئاً ، ناولته طبق الطعام ، وكان يقرأ في كتاب ، فألقى في حضرتي أبياتاً من الشعر ، كانت زقزقة العصافير تأتي من الشجرة ، ووجدت ثائرتي تهدأ ، بين العجوز والهرّ والعصافير . كانت تهب نسائم رطبة ، في ظهيرة يوم قائظ . وحين قام العجوز لصنع الشاي قلت له ، دعني أفعل . فقال ، لا ، أنت ضيفي أيها الفارس !،

ألقيت على باحة الدار نظرة .. كانت الشمس تلفح الفضاء باللهيب ، والقطّ مستلق على الأرجوحة ، يتابع العصافير في الشجرة حيثما وثبت ، ويموء بغزل رقيق متقطّع !.. تراوح الأرجوحة ما بين الشمس والظلال ، في

مدّ وجزر بطيئين ، مثل هبوب النسيم ، وقراءة الشعر ، مثل عيني العجوز ، كلّما ارتفع الجفنان ، ثم تراخيا .

وأنا أرتشف الشاي ، أخبرني العجوز بأنّه رائح إلى سوق الخميس ، إن كنت راغباً باصطحابه ، ولكني أحتاج إلى الإذن من أمي !.. رجوته أن يأخذه لي ، وقال العجوز ، سأفعل !.

قال العجوز ، إنه قرّر بيع موقد النّفط القديم . حملته له وأنا أمتطي الحذاء الإيطاليّ ، فلم أشعر بثقل الموقد ، كنت أثب على الطريق !.. وأصبح في مقدوري الالتفات شمالاً ويميناً ، وإلى الوراء !..

كان علينا قطع الضاحية المقفرة . وأوضح العجوز ، بأنه يحب المشي على الأقدام ، فهل أحبّ ذلك أيضاً ؟!. فركضت مستبقاً إيّاه مسافة ، ثم ناديت ، من يحبّ المشي أكثر ؟!..

ولمّا رأيت أعرابياً مع كلب كبير ، قصرت مشيتي إلى ما وراء العجوز ، متحاشياً الكلب ، ثم درت حوله ، ومع ذلك ، ارتدّ الكلب إليّ بلسانه الأحمر المدلّى !. فقال العجوز ، لا تخف ! الحيوانات تحب الأطفال !، فتوقّفت للكلب ، ولم أخف ، حتى شمّني ، ثم واصل سيره !.

وبعد ذلك ، سدّت الآفاق شاحنة قادمة ، ملتفّة بالغبار ، وما إن عبرت ، حتى امتلأنا بالدخان والغبار ، فاشمأزّ العجوز ، وقال ، أين المفرّ ؟!. أغلق عينيك ، واحبس أنفاسك !.

تعلّمت ، من بعد ، المناورة في البحث عن الدرب النظيف ، حتى إنّي ألج المعابر القصيّة . وأستبدل ، في الطريق ، جهة بأخرى . اليوم ، أصبح الأمر شائكاً ، ويجب حين الخروج ، إعلان حال الطوارئ ، ضدّ السموم القاتلة !.

لم يستطع العجوز إبرام صفقة البيع ، جميع الباعة قال له ، لا نشتري ، حتى بائع اللوحة ، ويعرفه العجوز ، قال له ، لا أشتري !. فضرب العجوز عيناً على اللوحة ، وعيناً عليّ ثم قال ، تعال نستريح قليلاً عند صديقنا !.

أمّا أنا فجلست أمام اللوحة ، أبادل الفتاة نظرة الشرود !. وفي لحظات حميمة !، تفحّصت كيف وضعت كفّيها ، وكيف زمّت عينيها وئاما للشفتين !.. كان العجوزان يتحدّثان ، ومن لجّة الشّرود ، انتبهت لما يقولان .

قال البائع العجوز لصاحبي ، أدخلوا بعض النسوة إلى السوق ، ومن بناية بعيدة ، صوّروا صبية يتحرّشون بهن ، ثم عرضوا الصّور ، وطلبوا منّا إخلاء السوق !.

فردّ صاحبي العجوز ، ألم توكلوا محامياً ؟!.
قال البائع ، محامي ؟!.. يا صاحبي !.. ماذا تقول ، وأنت أدرى بهذا البلد ؟!، قل لي ، اللذين خسروا أموالهم بالملايين ، لماذا لم يوكلوا محاميهم ؟!..

وألقيت نظرة أخرى على الفتاة !.. استدارت اللوحة بابتسامة جديدة !، وسقطت إصبع السبّابة على أخواتها من جديد ، والملامح أعتمت !..

كان الوقت يمضي ، عندما ربّت العجوز على رأسي إيذاناً بالمسير . . لكن انفجاراً دوّى !.. ومن آخر السوق تصاعد اللّهب !.. اقتربت النار شامخة راقصة ، واهتزّت الأرض !..
في الرّعب المباغت ، مرّر العجوز يده فوق رأسي ، صادّاً سحابة الموت !. ثم شدّها في مستوى أفقيّ ، وسمعنا صراخ الباعة ، قناني الغاز تنفجر !.. هيّا ..هيّا !.
أثناء الفرار ، جاءني ضغط قويّ ، ففقدت الوعي كليّاً .

صحوت خارج السوق !. وكان يحملني العجوز ، بين حشود الناس ، و حرارة هائلة تلفح وجوهنا !. تصايح الباعة ، وصرخ رجل منهم ، أبلغوا رجال الإطفاء !.
قال رجل آخر ، فعلنا !.
متى ؟! هناك هم !.. على بعد أمتار ! .

وانتبه العجوز إلى أني قد صحوت فقال ، هل تستطيع الوقوف على رجليك أيها الفارس ؟!. فهززت رأسي !.
ولمّا أحسست بقدميّ تلامسان الأرض ، شعرت بقوّة الانطلاق ، فاندفعت راكضاً كالسّهم في اتجاه السوق المحترق!.. لكن العجوز انطلق خلفي ، وجعل يطلق الصراخ :
الولد !.. الولد !.. امسكوه !.
رحت أصرخ ، اللوحة !.. اللوحة !.. تحترق !.. ثم أمسكوا بي!..

قال العجوز ، وتريد أن تحترق مع اللّوحة ؟!.. يالك من فارس متهوّر !.. ظللنا هكذا ساعتين، حتى أصبح السوق رماداً . في هذه اللحظة ، حطّت سيارة الإطفاء !. وصرخ الناس:
الأنذال ، الجبناء !.
عندئذ ترك رجال الإطفاء السوق يلفظ أنفاسه الأخيرة !.. ووجّهوا

مدافع المياه إلينا.

سريعاً ما تبخّر الماء عني . والعجوز بثوبه الطويل ، اضطرّ للمشي البطيء مسافة ، ثم استعاد مشيه المعتاد شيئاً فشيئاً !.

# # #

العصافير !..
ما عدت أسمع زقزقة العصافير !.. أسمع الحيّ يلوك القصّة !. وسعدا الشّامت ، والصّبية يستزيدون !.، حتى نشروا زيفاً كثيراً . لمّا اجتمعت بهم ، بدأت أعرف من هو معي ومن ضدّي !.. منذ سنوات لم تسنح الفرصة !. معهم واجهت الحكم المسبق، ونيّة الشر ، ومن ينتظر وقوع المأساة انتظاراً ، حتى يروي غليله ! كل شيء شرحه العجوز . السوء المختبئ وراء شيء لا يرام !.

قال صبيّ ، أعرف بعض الناس يسرقون الكهرباء منذ سنوات ، فقال صبيّ آخر ، دعك منهم ، ألا تعرف الناس ؟!. فقال سعد ، لماذا لا تقولان ، من الذي يسرق ؟!. هذا كذب !. ثم حمل حجراً قذف به هرّاً يمشي على السور ، فصرخ الهرّ ، وسقط وراء الجدار !.

اقتربت من هذا السعد ، فطوّقت عنقه بأظافري :
لماذا تضرب القطّ ؟!.
وما شأنك ، هل هو قطّكم ؟!.
ليس قطنا ، ولكن أجبني ، لماذا تضرب القطّ ؟!.
لا شأن لك !.

وغرست أظافري !.. لكنّه استغاث بالصبية فأغاثوه ، ولم تطله سوى خمشة واحدة ، بعد ذلك راح يطوف على الصبية ، بالهمس واستراق النظر ، فاقتربت أسأل ، ماذا يقول ؟!. عندئذ أقسم الصبية ، بأنه يقول خيراً !.

ظللت أرنو إليه بازورار ، حتى أدار ظهره ومضى !.

ما عدت أسمع زقزقة العصافير !..

ولا أرغب في الاجتماع بالصبية ، حلّ الوجوم في بيتنا ، وأصبح أخوتي صامتين كلهم . أمي لا تتحدّث إلاّ مع جارتها . ذات مساء ، حاولت العبث لأنشر شيئاً من المرح ، لكن أمي وجّهت إليّ ذات التّهمة ، دليلها أظافري الطويلة ، والمرح المفاجئ المشبوه !. لو أن أخي الصموت قال هذا لنشبت أظافري في وجهه ، أو قاله أخي الثرثار ، أو المناضل ، أو راكب الدراجة !. ولكن ما عسى أفعل بأمي ؟!.. لاشيء !. حسناً ، وانكببت معهم في الوجوم !.

دعيني أعمل مع أخي ؟!.

لا !..

لماذا ؟!..

القرار لأبيك !.

أعرف .. القرار له ، وهو في السجن !.. سجنوا معه القرار !.

ما عدت أسمع زقزقة العصافير !..

وأفكّر في كلمات العجوز ، فينصبّ انتباهي أكثر على حيّنا البائس يطفح بالزبالة والإهمال !.. الحاوية التي فيه لجمع القمامة ، فجأة ، وتختفي !. الطرقات ، ما إن تسوّى حفرة ، حتى وتنشأ حفرة أخرى ، مليئة الزبالة صيفاً ، والمياه الآسنة شتاءً !.. الأمطار التي تغرس أظافرها في سقوف بيوتنا ، لتهطل فوقنا ماءً ورطوبة !.. جانب الطريق الذي أودى بالشاحنة في الهاوية ، ويهدّد المراكب والأطفال من جانب آخر !. الأوساخ التي طمرت الأحياء ، والأموات والبلاد جميعاً !..

ما عدت أسمع زقزقة العصافير !..

ليس إلاّ صفير مربّي الطيور!.. وقطع الأخشاب ، والحجارة ، والأوساخ المقذوفة من فوقنا ، ومن تحتنا !.. وإذا ما أحدنا ذهب إلى الشرطة ، سيسخرون منه ، " تريد أن نجمع لك مربّي الطيور ؟!. كلهم !. من أنت ؟!. وأين عساك تعيش ؟!. " . فتلعق جراحك ، وتبتلع المهانة !. وتخرس !.

قال العجوز ، كلّ شيء تعرفه الحكومة !.. وكل شيء سيّئ يستمرّ ،

تريد له أن يستمر!. كل شيء بإذنها !.

أين العصافير ؟!.. ما عدت أسمعها !..
صعدت إلى أعلى الجبل .. باحثاً عن واحد يشدو ، عن كلب ينبح ، وهرّ يموء !.. كلّها توارى عن قيظ الظهيرة !..
هنا أصبحت للشمس أقرب ، وللسماء !.. أشير للريح !. ثمّ ألوي فتلوي !. تحتي المدينة البائسة !. كل المدينة !..مثل طبق اجتمعت !.. طبق الحكومة المفضّل ، فيه أشكال الحلوى وفيه الزبالة !. هو ما تهوى !.
تمزج العجلة الجمال بالبشاعة ، ويصدر الخليط ، عنف وظلم ومهانة !.، قال العجوز ! .

ضربت بقدمي الأرض حتى أثرت الغبار !.. وهبّت الريح صانعة سحابة فوق القمّة !. من ثم هويت على السّفح راكضاً في أقصى سرعة ، أنبش التراب ، والحجارة ، في وجه الشمس والريح ، وأصرخ :

سأبصق شمالاً ويميناً !..
باسم القانون !.. وما يجري !..
ماذا يعني ؟!..
ماذا تعني العصافير التي تغرّد على أغصان الشجر ؟!..
هيا.. طيري... طيري... طيري !.
ما تريد الكلاب النابحة في الليل والنهار ؟!..
اخسئي !..
ماذا يغنّي المطربون ؟!.. اصمتوا .. أرجوكم ! .
ما يقول الشعراء ؟! .. آسفون ، لا نفهمكم !.
والخطباء ؟!.. بخ ..بخ !..
ولماذا أبي يصرخ ؟!.. أنا لست مجرماً !..
أنت في السجن !.. فادع من يفكّ أسرك !..
أما أنا !..
سأبصق شمالاً ويميناً !..
وحالما ترجع ، سنبدأ باتفاق جديد !..
أولاً ، نترك المدرسة .
وثانياً ، نعمل !.
وثالثاً ، تستطيل أظافري !.
فهل هذا يعجبك ؟!..

وصلت بيت العجوز وأنا أجهش بالبكاء !.. فهبّ مخفّفاً عني :
يا عزيزي ، الصغير !.. كفّ عن البكاء ، حسبتك رجلاً !.، لا تبك !. سيرجع أبوك لا محالة !. ولحظة !.. سأقرأ لك أشعاراً للأطفال ، عندي منها الشيء الكثير !.. ولكن عليك أن تطمئن أولاً ، وتفرح ، وترسم ، أليس كذلك ؟!.. أما مسكت رأس الخيط ؟!.. فهيّا شدّه !.. شدّه وارسم .. شدّه حتى يأتيك العصفور !.
والآن ، تعال معي !.

شدّني إلى ساحة الدار ، هناك حطّني في الأرجوحة ، ثم راح يدفع المركبة كلّما عادت إليه !.. كان القط يثب من ورائي ، جيئة وذهاباً ، ومن فوقي ، تهطل زقزقة العصافير !.. يحرّك الهواء رائحة العطر .. وأطوي المسافة شرقاً وغرباً .

ـ انتهت ـ

دمشق في/6.29 . 2001